رابطة العالم الإسلامي

الدعوة والداعية
رؤية معاصرة

د. منقذ بن محمود السقار
المستشار في رابطة العالم الإسلامي

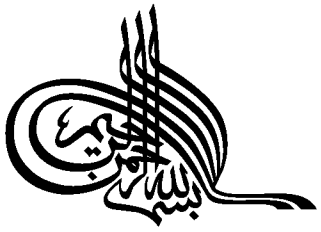
بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وعلى آله وصحبه ومن والاه واتبع هداه إلى يوم الدين، وبعد:

الدعوة إلى الله تعالى مهمة الأنبياء، وميراثهم في أممهم ، أشرف المقاصد، وأعلى المراتب، وهي محور حديثنا في هذه الصفحات.

وقد عرَّف الإمام ابن تيمية الدعوة بأنها: «الدعوة إلى الإيمان به، وبما جاءت به رسله بتصديقهم فيما أخبروا به، وطاعتهم بما أمروا به، فالدعوة إليه من الدعوة إلى الله تعالى.

وما أبغضه الله ورسوله، فمن الدعوة إلى الله النهي عنه.

ومن الدعوة إلى الله أن يفعل العبد ما أحبه الله ورسوله، ويترك ما أبغضه الله ورسوله من الأقوال والأعمال الباطنة والظاهرة»[1]، فموضوعها التصدي لتعريف الناس بالدين الذي ارتضاه الله للبشرية ديناً، بقواعده ونظمه وتشريعاته وآدابه، وحثهم على الالتزام بها والاستمساك بعراها، سواء كانت الدعوة موجهة لمسلم أو كافر، وسواء كانت تعريفاً بمبادئه، أو وعظاً بقرآنه، أو تذكيراً بشيء من شرائعه وفروعه، أو أمراً بمعروف الشرع الحكيم ، ونهياً عن منكره، أو فعلاً حسناً يقتدي به الناس، فيرغبهم في مرضاة الله أو يذكرهم ببعض وجوهه، فهذا كله من الدعوة.

واليوم تنوعت وسائل الدعوة، وتعددت مؤسساتها، ولم تعد مقتصرة

---

(١) كتب ورسائل وفتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية (٢٠/٧).

على الصورة التقليدية الجميلة التي ألفناها في تاريخنا الطويل، فقد استجد لدينا منها فنون متنوعة، وأبواب متجددة، فقد دخلت وسائط الدعوة الجديدة إلى كل بيت عبر قنوات التلفاز ومواقع الشبكة العنكبوتية وبرامج التواصل والدردشة، ولم تعد الدعوة بالضرورة عملاً فردياً يقوم به إمام في مسجد، أو شيخ في مناسبة، لا بل لم تعُد حكراً العلماء وطلاب العلم، بل أصبحت عملاً جماعياً، يشترك فيه حتى عوام الناس.

وهذا التطور ليس خاصاً بالدعوة الإسلامية ووسائلها، بل لعل الرابح الأكبر منه هو القوى المعادية للإسلام التي وجدت فيه منفذاً للولوج إلى حصون لطالما استعصت عليهم، فازداد التحدي، ووجب التجديد في وسائل الدعوة واستراتيجياتها ، لتلائم وتوائم التطور المتسارع، وتكافئ الكم والكيف للقوى التي تنافح الدعوة الإسلامية.

إننا اليوم معاشر الدعاة بحاجة إلى تجديد خطابنا الدعوي وآلياتنا في هذا العمل النبيل، هذا التجديد لا يعني التفلت من الأصول ولا الفروع، بل إعادة قراءة تجاربنا الدعوية ونتاجها والنظر في واقعنا ومستجدات مجتمعاتنا، ثم رسم أولويات الدعوة ومنهجها من حيث انتهى المجددون في أعصُر الإسلام المتتاليات، الذين صدق فيهم قول النبي ﷺ: «إن الله تعالى يبعث على رأس كل مائة سنة مَن يجدد لهذه الأمة أمر دينها»[1].

وليس المقصود بتجديد الدين اختراعَ شرائعَ جديدةٍ أو ابتداعَ عقائدَ

(١) أخرجه أبو داود ح (٤٢٩١) والحاكم (٤ / ٥٢٢) ، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة ح (٥٩٩).

مستحدثةٍ، بل «المراد من تجديد الدين للأمة إحياءُ ما اندرس من العمل بالكتاب والسنة ، والأمرُ بمقتضاهما ، وإماتةُ البدع والمحدثات ، وكسرُ أهلها باللسان ، أو تصنيفُ الكتب ، أو التدريسُ أو غيرُ ذلك»[١]، أي أن مهمة المجدد فرداً كان أو مؤسسة؛ هي التذكير بما تمس الحاجة إليه من المعاني الشرعية الغائبة عن أذهان الناس، بسبب الجهل أو النسيان أو الغفلة أو غلبة التصورات المادية والضغوط الحياتية.

وقد جمع الإمام أحمد رَحِمَهُ اللَّهُ معنى التجديد بقوله: «إن الله تعالى يقيض للناس في كل رأس مائة سنة من يعلمهم السنن، وينفي عن رسول الله ﷺ الكذب»[٢]، فالأمة المسلمة بحاجة دوماً إلى هذا النوع من التجديد ، لتسير على هدي من كتاب ربها وسنة نبيها ﷺ في معالجة أمراض واقعها ودفع الأباطيل التي تستهدف عبودية الأمة لربها، وسيرها في مراضيه ومحبوباته.

إذاً ، نحتاج إلى التجديد أو الرؤية المعاصرة لمسيرة الدعوة، وهو ما نحاول تلمس معالمه، ونحن نرنو إلى استعادة الصور الناجحة في الدعوة وصولاً إلى التأثير وتجاوز المعوقات والقفز من فوق العقبات.

فنسأل الله أن يجعلنا من الدعاة إلى دينه المسابقين إلى مرضاته، إنه أكرم مسؤول.

---

(١) مرعاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح، أبو الحسن المباركفوري (١/٣٤٠).

(٢) موسوعة أقوال الإمام أحمد بن حنبل في رجال الحديث وعلله، جمع وترتيب : السيد أبو المعاطي النوري وآخرين (٣/٨٠).

الفصل الأول:

الدعوة فريضة شرعية
وضرورة بشرية

أولاً: حكم الدعوة

الدعوة إلى الله ليست ترفاً اختيارياً نمارسه إذا شئنا، ونتركه إذا سئمنا، بل هي تكليف رباني وعبادة متجددة لا غناء لنا عنها في مواجهة جاهلية عاتية، لا يبددها إلا قيامنا بالدعوة إلا الله تعالى على أكمل وجه وأحسن صورة.

وقد اختلف العلماء في حكم الدعوة ، فعدَّها بعضهم من فروض الكفايات التي أوجبها الله على عموم أمة الإسلام، فإن قام بها من يكفي منهم سقط الإثم عن الباقين.

أما إن قصروا أو تهاونوا أو امتنعوا؛ أثموا جميعاً، واستدلوا بقول الله تعالى: ﴿وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ (آل عمران: ١٠٤)، فقوله: ﴿منكم﴾ يشير إلى وجوب الدعوة الكفائي.

ولا ريب أن أهل العلم هم أولى الناس للقيام بهذا الواجب، لما شرفهم الله من أدواته ووسائله ﴿ وما كان المؤمنون لينفروا كافةً فلولا نفر من كل فرقةٍ منهم طائفةٌ ليتفقهوا في الدين ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم لعلهم يحذرون ﴾ (التوبة: ١٢٢).

وذهب آخرون من أهل العلم إلى أن الدعوة فرض على الأعيان، أي تجب على كل مسلم، واستدلوا لذلك بالآيات والأحاديث التي تلزم المسلمين بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ولا تفرق بين عالم وغيره،

فكل يدعو بقدر طاقته وإمكاناته «كلكم راع، وكلكم مسئول عن رعيته»[١]، وقد حكم الله تعالى بهلاك بني آدم ؛ فلم يستثن منهم إلا المؤمنين الداعين إلى الله والمتواصين به ﴿وَالْعَصْرِ (١) إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ (٢) إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾ (العصر: ١-٣).

وقد أورد الإمام الرازي رَحِمَهُ اللَّهُ في قوله: ﴿ولتكن منكم﴾ معنيين:

أولهما: أنها للتبعيض، كما تقدم.

والثاني: أنها للتبيين ، بمعنى: كونوا جميعاً أمة تدعو إلى الخير، كما في قوله تعالى: ﴿فَاجْتَنِبُواْ الرِّجْسَ مِنَ الأَوْثَانِ﴾ (الحج: ٣٠)، أي كل الأوثان، وليس بعضها.

واستدل له بدليلين: «الأول: أن الله تعالى أوجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر على كل الأمة في قوله: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ (آل عمران: ١١٠).

والثاني: هو أنه لا مكلف إلا ويجب عليه الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ؛ إما بيده أو بلسانه أو بقلبه، ويجب على كل أحد دفع الضرر عن النفس، إذا ثبت هذا فنقول: معنى هذه الآية: كونوا أمة دعاة إلى الخير آمرين بالمعروف ناهين عن المنكر»[٢].

وقد جمع شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ بين القول بالوجوب العيني

---

(١) أخرجه البخاري ح (٨٩٣)، ومسلم ح (١٨٢٩).

(٢) مفاتيح الغيب (١٤٥/٨).

والكفائي فقال: «الدعوة إلى الله تجب على كل مسلم ؛ لكنها فرض على الكفاية، وإنما يجب على الرجل المعين من ذلك ما يقدر عليه إذا لم يقم به غيرُه، وهذا شأن الأمرِ بالمعروف والنهي عن المنكر وتبليغِ ما جاء به الرسول والجهادِ في سبيل الله وتعليمِ الإيمان والقرآن»[١].

وأياً كان الوجوب في الدعوة عينياً أم كفائياً ؛ فإنه يلزمنا اليوم جميعاً التصدي لهذا العمل العظيم، ولا يليق بأحدنا أخذ إجازة مفتوحة عن الدعوة إلى الله وبلاغ دينه، بذريعة أنها من واجبات الكفاية، فأي كفاية تحققت في زماننا، والملايين من البشر لم يسمعوا عن الإسلام ابتداءً، ولا رأوا القرآن الكريم أبداً، وبعضهم سمع عنه من أعدائه وشانئيه، ولم ير في حياته واحداً منا يصحح تصوره المغلوط عن الإسلام!!، فهل يقبل – والحال هذه- تذرعنا بمسألة الكفاية، لتبرير تقاعسنا وتوانينا عن القيام بواجبنا في التعريف بدين الله والدعوة إليه.

أما نخشى أن يتعلق بعض هؤلاء برقابنا يوم القيامة، ويقولوا: يا رب قد قصروا في دعوتنا، شغلهم المال والبنون عن الدعوة والبلاغ والتبيين.

ومن أراد أن يتيقن بأننا لم نقم بواجب الكفاية، فليستعلِم: كم من موقع لأمة الإسلام على شبكة الإنترنت يعرف به باللغة الصينية التي ينطق بها خُمس سكان العالم؟ ألا نخجل من شكاة الأمم التي لم نترجم إلى لسانها معاني القرآن الكريم؟ أما آن أن نسأل أنفسنا ومؤسساتنا الدعوية: كم من داعية أعددناه ليقوم بالكفاية عنا في دعوة مليار من أهل الصين، ومثلِهم من

---

(١) مجموع الفتاوى (١٥/١٦٦).

أهل الهند، ومثليهم من الملاحدة الذين كفروا بالأديان لِما رأوا فيها من تبديل وتحريف وخرافات، ولم يجدوا منا مبلغاً يطلعهم على حقائق الإسلام وروائعه ، فبقوا أُسارى ظنونهم بأن الإسلام لا يختلف عن الأديان التي يعرفون، ومنها يفرون.

في عصرنا تقارب العالم، وحولته الوسائط الإلكترونية الحديثة إلى قرية صغيرة، فما عاد لنا عذر نتعلق به ونستتر به عن تخلفنا في الوفاء بواجب ديننا علينا في البلاغ والتبيين، ويصدق فينا قول الإمام النووي رَحِمَهُ اللَّهُ: «وقد يتعين الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، يعني يصير فرض عين، كما إذا كان في موضع لا يعلم به إلا هو، أو لا يتمكن من إزالته إلا هو، وكمن يرى زوجته أو ولده أو غلامه على منكر أو تقصير في المعروف»[(١)].

وهكذا، فإنا معاشر المسلمين مطالبون جميعاً بالدعوة إلى الله بين المسلمين وغيرهم ممن يعيش حولنا، أو يمكننا الوصول إليه عبر الإنترنت أو غيره، وكلٌ يكلف بحسب قدرته وطاقته، فمنا من يتكلم فيعظ ويعلم، ومنا من يكتب ويبين، ومنا من لا يقدر على ذلك ، لكنه يترجم جهود العلماء وطلاب العلم ، وينقل عن كتبهم ومقالاتهم ومحاضراتهم المرئية والمسموعة، فيوصلها عبر الوسائط الإلكترونية إلى من يحتاج إليها ، فيشارك أهل العلم دعوتهم ، وينافسهم في أجورهم، و«الدال على الخير كفاعله»[(٢)].

---

(١) شرح النووي على صحيح مسلم (٢/٢٣).

(٢) أخرجه أحمد ح (٢٣٠٢٧)، وصححه شعيب الأرناؤوط في تخريجه للمسند (٣٨/١٣٢).

ثانياً : فضل الدعوة

وإذا كان حكم الدعوة إلى الله يدور بين فرض العين وفرض الكفاية، فإن المسلم الحريصَ الضنينَ بآخرته أسرعُ الناس إلى المسابقة إليه، لما في هذه العبادة من فضل يرفع عند الله مقداره ، ويثقل في الآخرة ميزانه، فقد ورد في فضل الدعوة وتعليم الناس الخير والعلم ودلالتهم عليه نصوصٌ لا تكاد تحصى لكثرتها.

فماذا أعد الله من الخير للدعاة إلى الله تعالى؟ وماذا ينتظرهم من عظيم الأجر عنده؟ وما هي منزلة الدعاة عنده تعالى؟

إن الدعوة إلى الله ودينه من أشرف العبادات عند الله، والقائمون بها وُراث منصب النبوة.. الدعاة ملح الأرض، لا تصلح الأرض بدونهم، وكيف لها أن تصلح بدون أحسن الناس قولاً وعملاً بشهادة ربهم تبارك وتعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِمَّنْ دَعا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صالِحاً وَقالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ (فصلت:٣٣).

قال أبو حيان التوحيدي رَحِمَهُ اللهُ: «أي: لا أحدَ أحسنُ قولاً ممن يدعو إلى توحيد الله ، ويعمل العمل الصالح ، ويصرح أنه من المستسلمين لأمر الله المنقادين له ، والظاهر [في أهل هذه الآية] العموم في كل داع إلى الله ، وإلى العموم ذهب الحسن ومقاتل وجماعة. وقيل بالخصوص ، فقال ابن عباس: هو رسول الله ﷺ»[1].

(١) البحر المحيط (٧/٤٧٥).

وقال الحسن البصري رَحِمَهُ اللَّهُ في تفسير قوله: ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً ﴾: «هو المؤمن أجاب الله في دعوته ، ودعا الناس إلى ما أجاب الله فيه من دعوته، وعمل صالحاً في إجابته، فهذا حبيب الله، هذا ولي الله».

وعقب عليه ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ بالقول: «وإذا كانت الدعوة إلى الله أشرف مقامات العبد وأجلَّها وأفضلَها ، فهي لا تُحصَّل إلا بالعلم الذي يدعى به وإليه، بل لا بد في كمال الدعوة من البلوغ في العلم إلى حد يصل إليه السعي، ويكفي هذا في شرف العلم أن صاحبه يحوز به هذا المقام، والله يؤتي فضله من يشاء»[1].

وهذه الخيرية أو الأحسنية للداعية هي التي أنالت الأمة المسلمة التفضيل على سائر الأمم، فوجود الدعاة ودعوتهم هو مقوم هذه الخيرية وسببها ﴿كنتم خير أمةٍ أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله ﴾ (آل عمران: ١١٠).

ولولا الدعاة إلى الله لكان حال المسلمين كحال من قبلنا من الأمم الذين غضب الله عليهم ولعنهم بسبب توانيهم وتساهلهم في الدعوة إلى الله وإلى مراضيه ﴿ لعن الذين كفروا من بني إسرائيل على لسان داوود وعيسى ابن مريم ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون (٧٨) كانوا لا يتناهون عن منكرٍ فعلوه لبئس ما كانوا يفعلون ﴾ (المائدة: ٧٨-٨٨).

ويحوز الداعية المزيد من أسباب الخيرية عندما يشارك الناس في

(١) مفتاح دار السعادة (١/١٥٣).

أجورهم حين يعملون بموجب دعوته وإرشاده، فيُصلُّون قيام الليل مثلاً لحديث سمعوه منه، أو يتصدقون لآية قرأوها في مقاله، أو يصِلون أرحامهم، أو يعودون مرضاهم.. إلى غير ذلك من أبواب البر التي يتناولها الدعاة في وعظهم، وما أكثرها، فحين يمتثل الناس ذلك، فإنما يضيفون في حسنات الداعية أجوراً لا يعلمها، لكن الله يعلمها، ولا يضيع له نصيبه منها، فقد قال ﷺ: «من دل على خير فله مثلُ أجر فاعله»[(١)]، وهذا الحديث العظيم «فيه فضيلةُ الدلالة على الخير، والتنبيهِ عليه، والمساعدةِ لفاعله، وفيه فضيلةُ تعليم العلم ووظائفِ العبادات؛ لاسيما لمن يعمل بها من المتعبدين وغيرِهم»[(٢)].

وفي حديث آخر قال ﷺ: «من دعا إلى هدىً كان له من الأجر مثلُ أجور من تبعه لا يَنقُص ذلك من أجورهم شيئاً، ومن دعا إلى ضلالة كان عليه من الإثم مثلُ آثام من تبعه لا يَنقص ذلك من آثامهم شيئاً»[(٣)].

قال المناوي رَحِمَهُ اللَّهُ: «من تأمل هذا المعنى ورُزق التوفيق انبعثت همته إلى التعليم ورغب في نشر العلم ليتضاعف أجره في الحياة وبعد الممات على الدوام، ويكفَ عن إحداث البدع والمظالم من المكوس وغيرها، فإنها تضاعف عليه السيئات بالطريق المذكور ما دام يعمل بها عامل ، فليتأمل

(١) أخرجه مسلم ح (١٨٩٣).
(٢) شرح النووي على مسلم (٣٩/١٣).
(٣) أخرجه مسلم ح (٢٦٧٤).

المسلم هذا المعنى وسعادةَ الدال على الخير وشقاوةَ الدال على الشر»[١].

وقد اختلف العلماء في قدر الثواب الذي يناله الدال على الخير، فرأى الإمامان النووي وابن الجوزي وغيرُهما أنه ينال «ثواباً بذلك الفعل، كما أن لفاعله ثواباً، ولا يلزم أن يكون قدرُ ثوابهما سواء»[٢].

وذهب آخرون إلى تساوي ثواب الدال على الخير وثواب فاعله في أصل أجر الطاعة، وأن الفاعل يختص عن الدال بمضاعفة الأجر ﴿ من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها ومن جاء بالسيئة فلا يجزى إلا مثلها وهم لا يظلمون ﴾ (الأنعام: ١٦٠).

وأما الإمام القرطبي رَحِمَهُ اللَّهُ فيرى أن الدال والفاعل متساويان في الأجر والتضعيف، بل قد يزيد أجر الدال على أجر العامل: «إنه مثله سواء في القدر والتضعيف، لأن الثواب على الأعمال إنما هو بفضل من الله، يهبه لمن يشاء على أي شيء صدر منه؛ خصوصاً إذا صحَّت النية التي هي أصل الأعمال في طاعةٍ عجز عن فعلها لمانع منعَ منها، فلا بُعد في مساواة أجر ذلك العاجز لأجر القادر والفاعل، أو يزيدُ عليه»[٣].

ومما يدل أيضاً على فضل عبادة الدعوة إلى الله ما رواه الشيخان وغيرهما من خبر علي رضي الله عنه يوم خيبر، فقد عقد له النبي ﷺ الراية ، وأوصاه بوصية جامعة: «انفُذ على رِسلك [أي امض على مهل] حتى تنزل بساحتهم،

---

(١) فيض القدير (١٦٥/٦).

(٢) شرح النووي على مسلم (٣٩/١٣)، وكشف المشكل من حديث الصحيحين ، ص (٤٣٩).

(٣) عون المعبود (٢٦/١٤).

ثم ادعهم إلى الإسلام، وأخبرهم بما يجب عليهم من حق الله فيه، فوالله لأن يهديَ الله بك رجلاً واحداً خيرٌ لك من حُمْر النعم»[١].

وفي رواية في إسنادها ضعف أن النبي ﷺ قال: «لأن يهدي الله على يديك رجلاً خير لك مما طلعت عليه الشمس وغربت»[٢] أي خير من الدنيا وما عليها.

قال النووي رَحِمَهُ اللَّهُ عن حمْر النعم: « هي الإبل الحمْر ، وهي أنفَس أموال العرب ، يضربون بها المثل في نفاسة الشيء ، وأنه ليس هناك أعظم منه . .. تشبيه أمور الآخرة بأعراض الدنيا إنما هو للتقريب من الأفهام ، وإلا فذرَّة من الآخرة الباقية خيرٌ من الأرض بأسرها ، وأمثالِها معها لو تُصوِرت، وفي هذا الحديث بيان فضيلة العلم ، والدعاءِ إلى الهدى ، وسنِ السنن الحسنة»[٣].

وفهمه آخرون من العلماء على أن المراد منه أن دلالة الناس وإرشادهم: «خير لَكَ مِنْ أن تكون لك [حمر النعم]، فتتصدق بها»[٤].

ومما يحفز المؤمن على الدعوة إلى الله ويشهد لعظيم فضلها قوله ﷺ: «إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث: صدقةٍ جارية، أو علمٍ ينتفع به،

---

(١) أخرجه البخاري ح (٣٧٠١)، ومسلم ح (٢٤٠٦).

(٢) أخرجه الطبراني في الكبير ح (٩٣٠)، والحاكم ح (٦٥٣٧)، وضعفه الألباني في السلسلة الضعيفة ح (٢٩٥٠).

(٣) شرح النووي على صحيح مسلم (١٥٠/٨).

(٤) فتح الباري (٤٧٨/٧).

أو ولدٍ صالح يدعو له»، والداعية يترك بين الناس علماً يرشد الناس إلى جنة الله ومحبوباته، فياله من فضل يناله، وثواب يحوزه حين يطوي الثرى عظامه، فلا تطوى سجل حسناته .. كلما عمل عامل، أو تعلم متعلم من أثره كتب الله له بذلك أجراً.

ماتوا وغُيب في التراب شخوصُهم

والنشر مسكٌ والعظام رميم

وأخيراً ، فيكفي الداعية شرفاً وفضلاً دعاء النبي ﷺ له: «نضر الله امرأ سمع منا شيئاً ، فبلغه كما سمعه ، فرب مبلَّغ أوعى من سامع»[١]، ومعناه مأخوذ من: «النضرة: الحُسن والرونق .. خُص [مبلغ الناس الخير] بالبهجة والسرور والمنزلة في الناس في الدنيا ونعمة في الآخرة حتى يَرى رونق الرضاء والنعمة، لأنه سعى في نضارة العلم وتجديد السُّنة»[٢].

(١) أخرجه الترمذي ح (٢٦٥٧)، وأحمد ح (٤١٥٧)، وابن ماجه ح (٢٣٢)، وصححه الألباني في صحيح الترمذي.

(٢) شرح سنن ابن ماجة، للسيوطي ، ص (٢١).

ثالثاً : عاقبة ترك الدعوة إلى الله

إذا تجاوزنا اختلاف العلماء في حكم الدعوة بين قائل بالوجوب على الأعيان، وموسع له ليكون على عموم الأمة، وانتقلنا إلى مسألة أخرى، فإنا نتساءل عن عقوبة تقصيرنا في الدعوة إلى الله أفراداً ومجموعات؟

الدعوة ضرورة حياتية

وأحياناً يقول المثبطون والمتثاقلون عن طريق الدعوة، المتشبثون بالأعذار، والمستترون بالتعقل تارة، وبالحكمة تارة: ما لكم والآخرين، دعوهم يفعلون ما يحلو لهم، ما الذي يضيركم في منظر امرأة متهتكة إذا استترت نساؤكم؟ أو في رجلٍ يشرب الخمر فيضر نفسه ولا يؤذيكم، أو ثالث ينمي أمواله بالربا؟ ألا يكفي أن لا تشاركوهم معاصيِهم؟ دعوا الناس أحراراً، وربما قال بعض ظرفائهم: دعوا الخلق للخالق.

والسؤال: ماذا تخسر الأمة المسلمة لو تركت الدعوة إلى الله تعالى؟ كيف تكون دنيانا؟ وكيف ستغدو عند الله أُخرانا؟

والحق أن الله خلق الناس أحراراً، لكن حريتهم تنتهي حين تنتهك حرية الآخرين، والعاصي حين يعصي ربه لا يعتدي على حق الله فحسب، ولا يستجلب الشقاء لنفسه فقط، فمعصيته التي يسميها حرية شخصية يستجلب بها غضب الجبار على عموم المجتمع من حوله ، ويستمطر العذاب عليهم من السماء، ذلك أن لله قانوناً يتناساه البطالون يقضي بعقوبة المجتمع ؛ كلِ المجتمع إذا ظهرت المعاصي وفشت بين الناس من غير نكير ولا تبصير، قال تعالى: ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾

(الأنفال: ٢٥).

قال القرطبي: «قال علماؤنا: فالفتنة إذا عُملت ، هلك الكل ، وذلك عند ظهور المعاصي، وانتشار المنكر ، وعدم التغيير»، وقد قال عمر ﷺ: «إن الله لا يعذب العامة بذنب الخاصة ، ولكن إذا عُمل المنكر جهاراً استحقوا العقوبة كلهم».

وقد قال الحبر ابن عباس: «أمر الله المؤمنين أن لا يقِروا المنكر بين ظهرانيهم، فيعمهم الله بالعذاب»[١].

ونزول العذاب بعموم الأمة يؤذي فيمن يؤذيه ؛ المؤمنين لأنهم ممن يقع عليهم العذاب، لكن هؤلاء الصالحين يكون أذاهم في الدنيا دون الآخرة، قال ﷺ: «إذا ظهرت المعاصي في أمتي عمهم الله بعذاب من عنده» فقالت عائشة: يا رسول الله، أما فيهم أناس صالحون؟ قال: «بلى .. يصيبهم ما أصاب الناس، ثم يصيرون إلى مغفرة من الله ورضوان»[٢]، وفي حديث آخر: «إذا أنزل الله بقوم عذاباً أصاب العذاب من كان فيهم، ثم بعثوا على أعمالهم»[٣]، ولا يظلم ربنا أحداً.

وهكذا، فحين يقوم الدعاة إلى الله بواجبهم في النصح والإرشاد؛ فإنهم يدفعون عن أهلهم البأس والأذى، ويحققون الضمان والأمان لعموم مجتمعهم.

---

(١) الجامع لأحكام القرآن (٣٩٢/٧).

(٢) أخرجه أحمد ح (٢٦٥٩٦)، والطبراني في المعجم الكبير ح (٧٤٧)، وضعف إسناده شعيب الأرناؤوط في تخريجه للمسند (٢١٦/٤٤).

(٣) أخرجه البخاري ح (٦٦٩١)، ومسلم ح (٢٨٧٩).

وقد أمر الله تعالى المؤمنين بأن يكونوا صالحين في ذواتهم ؛ مصلحين لمن حولهم: ﴿فَلَوْلا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ أُولُو بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الأَرْضِ إِلا قَلِيلاً مِمَّنْ أَنْجَيْنَا مِنْهُمْ وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ * وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ﴾ (هود: ١١٦).

وفي الحديث أن أم المؤمنين زينبَ بنتَ جحش رضي الله عنها قالت: يا رسول الله، أنهلك وفينا الصالحون؟ فقال: «نعم، إذا كثُر الخبث»[1]، فوجود الصالحين في مجتمع ما لا يمنع نزول العذاب، وأما وجود الدعاة المصلحين الآمرين بالمعروف والناهين عن المنكر فهو الأمان والضمان لأهل الأرض من عذاب السماء.

وفي عهد الصدر الأول؛ لما سمع بعض الصحابة قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ﴾ (المائدة: ١٠٥)، فهموا منها أن لا حرج عليهم في وجودهم والمعصية والعاصين جنباً إلى جنب، ما داموا لا يفعلون المعصية ولا يرتعون فيها، فصحح لهم أبو بكر الصديق فهمهم، وقال: «يا أيها الناس، إنكم تقرؤون هذه الآية، وتضعونها على غير مواضعها، فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الناس إذا رأوا المنكر فلم يغيروه؛ يوشك أن يعمهم الله بعقابه»»، وفي رواية: «ما من قوم يُعمل فيهم بالمعاصي، ثم يقدرون على أن يغيروا ثم لا يغيرون إلا

(١) أخرجه البخاري ح (٣٣٤٦)، ومسلم ح (٢٨٨٠).